

ملحق

وتشرب روحه، وتشكل بطابعه، ومع أننا سنضرب صفحا عن المنظور التاريخي المشبع في قراءة طرف من تراث هذا الجنس الأدبي الفذ، إيثارا لمقاربة نصه النقدي الفريد، الذي تأسس على بعد الآف الأميال في مصر على يد ابن سناء الملك في كتابه "دار الطراز"، إلا أننا سنجد تطابقاً مدهشاً بين جملة الملامح الأسلوبية البارزة للموشحة، وبين هذه الصورة الطريفة للمدينة المطرزة اللعوب، وكأنها في بنيتها "تجريد موقعي" كما يقول أصحاب النظرية المحدثّة التي ترمى إلى الربط بين البيولوجيا واللغة على أساس التشكيل الهندسي.

وأول ما يبدو هنا في الموشحة هو انحرافها الحاد عن نموذج القصيدة المشرقية وخروجها عن إطاره. وهو انحراف أندلسي في صميمه، أدت إليه ضرورات الزمان والمكان، وتجلي في ثلاثة مستويات مترابطة : موسيقية ولغوية وأخلاقية . ومن ثم فإن الجهد النقدي الضائع الذي يتكلفه بعض الباحثين، للمباعدة بين الصفة الأندلسية والموشحات، بإرجاعها إلى أنماط المسمطات والمخمسات المشرقية يغيب عنه الوعي بشبكة العلاقات النصية والتاريخية معاً . وكان ابن سناء الملك صريحاً وقاطعاً في تحديده لهذه النسبة من أول سطر في كتابه : "وبعد، فإن الموشحات مما ترك الأول للآخر، وسبق بها المتأخر المتقدم، وأجلب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وغادر بها الشعراء من متردم" (٢). وقد وضع ابن بسام من قبله في الذخيرة هذه النسبة قائلاً : "وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقمة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة بن ماء السماء منآدها، وقوم ميلها وسنادها، فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه، ولا أخذت إلا عنه" (٣).

ونقرأ خبراً يورده ابن سعيد في "المقتطف" يقول : "سمعت الأعلام البطليوس، يقول إنه سمع ابن زهر يقول : ما حسدت وشاحاً على قوله إلا ابن بقي حين وقع له :-

أما ترى أحمد * في مجده العالى * لا يلحــــــــــــــــق

أطلعته المغرب * فأرنا مثله * يا مشرق" (٤)